الباب الثالث

أصول الجاهلية كما فى الحديث النبوى

وردت فى أحاديث النبى ﷺ كلمات عن الجاهلية ذكر فيها أوصافها وأحوالها منها ما مدحها النبى وذكرها بخير كمكارم الأخلاق ، ومنها ما ذمها وأبطلها . أما ما ذمها النبى فتتلخص فى الأمور الآتية :-

التفرقة العنصرية وعدم الرضا بقضاء الله واعتقاد التأثير لما لا تأثير له على الكون . والحديث الآتى يشمل تلك الأصول الأربعة وهو قوله ﷺ :

« أربعة فى أمتى من أمر الجاهلية :

الفخر بالأنساب والطعن فى الأحساب . والنياحة على الميت والاستسقاء بالنجوم » متفق عليه .

الأول والثانى : هما الفخر بالأنساب والطعن فى الأحساب .

النسب : ما يميز الإنسان عن غيره من أب وأم وحي وقبيل وبلد .

الحسب : هو الشرف الثابت للإنسان أو لآبائه أو ما يعد له من المآثر والمناقب وعليه قول الشاعر :

ومن كان ذا نسب كريم ولم يكن له حسب كان اللئيم المذمما

كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم ويطعنون في أنساب غيرهم . لذلك كانوا يحفظون الأنساب ومآثر الأجداد للتفاخر بها خصوصاً على ألسنة الشعراء في الأسواق كما كانوا يفعلون في عكاظ وذي المجاز ومنى .

فجاء القرآن ينهاهم عن ذلك ويقول في النهي عن الفخر بالحسب : ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] ﴿ **وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ويقول في النهي عن الطعن في الأنساب : ﴿ **لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ** ﴾ [الحجرات : ١١] .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون فى الحج فيذكرون أيام آبائهم وما يعدون من أنسابهم يومهم أجمع فأنزل الله على رسوله: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ويلحق بهذا أحاديث أخرى كثيرة منها، ما رواه أبو داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى، وفاجر شقى، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بآبائهم إنما هم فحم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن».

ومنها ما رواه الشيخان عن أبى ذر رضى الله عنه قال: سببت رجلاً (وهو بلال) فعيرته بأمه (يا ابن السوداء) فقال لى النبى ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».

قال أبو ذر: أعلى كبر سنى يا رسول الله؟ قال: «نعم، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت

يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

ومعنى قوله: إنك امرؤ فيك جاهلية، بمعنى بقى فيك خلق من أخلاق الجاهلية، وهو الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب، وفى رواية «ما كنت أحسب أنه بقى فى صدرك من كبر الجاهلية شىء»، فألقى أبو ذر نفسه إلى الأرض ثم وضع خده على التراب وقال: والله لا أرفع خدى منها حتى يطأ بلال خدى بقدميه، ولم يزل به حتى وطئ بلال خده بقدميه تكفيراً لذنبه. فيالإيمان الرعيل الأول من المسلمين. ومنها ما روى الحافظ ابن عساكر قال:

جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى، وصهيب الرومى، وبلال الحبشى فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى النبى ﷺ) فما بال هذا وهذا (مشيراً إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه، فأخذ بتلابيبه، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره بمقاله.

فقام النبى ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلاً : « يا أيها الناس إن الرب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » .

وفى عهد سيدنا عمر تفاخر قوم أمام سلمان الفارسى بأنسابهم ، هذا يقول أنا ابن فلان ابن فلان وهذا يقول أنا ابن فلان ابن فلان وسلمان صامت لا يتكلم حتى قال له أحدهم ابن من أنت ؟ فقال سلمان أنا ابن الإسلام ثم أضاف منشداً :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

فبلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فبكى من فرط تأثره بهذه الكلمة وقال: وأنا أبى الإسلام ، وكررها ثلاثاً .

الأصل الثالث من أصول الجاهلية :

النياحة على الميت

كانت نساء العرب فى الجاهلية يبكين بالصراخ والعويل ويدعون على أنفسهن بالويل والثبور نحو : واجبلاه واسنداه إذا مات لهن زوج أو أخ أو أب أو قريب ويحلقن رؤوسهن ويشققن جيوبهن ويلبسن أسوأ ثيابهن وينشرن شعورهن، فنهى الإسلام عنها وسماها دعوى الجاهلية ، وفى القرآن :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ويقول الحديث : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » متفق عليه .

وجاء أيضاً عن أبى موسى الأشعرى « أن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة » وفى أبى داود قالت إحدى النساء المبايعات « كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا نعصيه فى معروف وأن لا نخمش وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيباً ولا ننشر شعراً » .

المآتم من النياحة :

كان الناس يجتمعون على أهل الميت للتعزية فيجالسوهم

أياماً وليالى، ولا ينصرفون إلى حوائجهم ، فيقوم أهل الميت بواجب الضيافة من تقديم الطعام للمعزين فيزيدونهم مصيبة على مصيبة ويجددون لهم الحزن ويكلفونهم المؤونة، ولهذا جاء فى الحديث عن جرير يقول: « كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة » . رواه أحمد .

إحداد الرجال والنساء على الميت من النياحة :

كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها دخلت بيتاً صغيراً حقيراً ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم يؤتى لها بدابة من حمار أو شاة أو طير فتمسح به فرجها . وربما ماتت الدابة فى وقتها . ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع ما شاءت من زينة ، ويوجد مثل ذلك فى جاهلية غرب إفريقيا إلى عهد بعيد .

ولما جاء الإسلام وأبطل تلك التقاليد وأبقى ما فى الإحداد من أمارات الرحمة والوفاء بين الزوجين، وفرض العدة على المرأة ليتم به براءة الرحم .

وحرم على النساء الإحداد لموت أحد فوق ثلاثة أيام غير

الزوج الذى عليها أن تحد عنه أربعة أشهر وعشراً. وعلى ذلك يسير المسلمون فى كل مكان .

حتى دخلت التقاليد الغربية إلى العالم الإسلامى وإلى نيجيريا، فصارت المرأة تلبس السواد طول السنة أو نصف السنة إعلاناً على الناس بأنها أرملة مات عنها زوجها. وذلك من تقاليد الجاهلية الثانية الواردة إلينا من البلاد الغربية المسيحية.

وصول أجر الصدقة وأثر الدعاء للميت :

اعتاد المسلمون فى نيجيريا وما حولها أن يجتمعوا للدعاء للميت وأن يتصدقوا له على الفقراء والمساكين وإهداء ثوابها للميت .

وربما بدأوا ذلك من يوم الوفاة حتى اليوم الثالث أو اليوم السابع، ويتأولون ذلك بأنه ليستدرك الدعاء من فاتته الجنازة من البعداء.

فانقسم العلماء فى الأمر إلى قسمين :

قسم يمنعه ويحرمه ، ومنهم فى هذا العصر : الشيخ المختار

ساليكوتو فى مدينة إلورن، والشيخ صلاح الدين اللناسى فى إبادن، والشيخ كمال الدين الهادى الألورى.

وقسم يجيزه منهم أكثر علماء إلورن وإبان ويحتجون بالأدلة التالية :

أولاً : قالوا إنه لا شك فى أن الميت ينتفع بعمل الأحياء إن كان صالحاً، كما يتضرر به إن كان بكاء أو فساداً ، وصح أن الميت ليعذب ببكاء الأحياء عليه .

ثانياً : قالوا بأنه فيما ورد من الحديث القائل : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وأن النبى ﷺ قال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل».

ثالثاً : قالوا لولا أن الميت ينتفع بعمل الأحياء لما شرعت صلاة الجنازة وردوا استدلال قوم بأن الآية ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤١]

فهذا دليل على أن الميت لا ينتفع بعمل الأحياء .

قالوا : إن الآية صريحة فى الكافر الصريح . أما المؤمن فإنه ينتفع بدعاء إخوانه المؤمنين لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾

[الحشر : ١٠]

ولأن الله أمر الولد أن يدعو لوالديه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤] .

وفى حديث دعاء زيارة القبور : «السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر» رواه الترمذى .

ما جاء فى إطعام أهل الميت لوصول ثوابه إليه :

جاء فى كتاب «صفوة التصوف» للحافظ المقدسى بالقرن الخامس، قال: فيما يسمونه العرس وذلك لأحد أمرين(١) :

أحدهما : تخفيف ما ألم بالناس من الحزن .

وثانيهما : إيصال أجر الصدقة للميت فى حال الغربة لينتفع به عند سؤال القبر. عن سفيان بن عيينة قال :

---

(١) وقد انتقده ابن الجوزى فى تلبيس إبليس، وقال: إنه لا يحتج به كما انتقد طعام العرس، هذا وإليه أميل.

حدثنا جعفر عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال: لما جاء نعى جعفر قال النبى: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم» (متفق عليه)[١].

وقال أيضاً: إنه ورد عن رسول الله ﷺ: «أسرع صدقة تصعد إلى السماء أن يصنع الرجل طعاماً طيباً ثم يدعو إليه ناساً من إخوانه».

ثم استشهدوا بما يروى عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت، فأى صدقة أفضل؟ قال: الماء، فحفر بئراً، وقال: هذه لأم سعد».

وبما ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه».

وبما جاء فى صفوة التصوف للمقدسى عن خارجة بن زيد ابن ثابت أنه قال: «توفى أبى قبل أن تصفر الشمس وكان من رأيى دفنه قبل أن أصبح، فجاءت الأنصار فقالت: لا تدفن

---

(١) إن هذا الحديث لا يؤيد إطعام أهل الميت للزوار بل إطعام الجيران لأهل الميت.

إلا نهاراً ليجتمع الناس، فسمع مروان الأصوات فأقبل يمشي حتى دخل عليَّ فقال: عزيمة مني أن لا يدفن حتى يصبح فلما أصبحنا غسلناه ثلاثاً الأولى بالماء، والثانية بالماء والسدر ، والثالثة بالماء والكافور ، وكفناه في ثلاثة أثواب : أحدها برد كان كساه إياه معاوية فصلينا عليه بعد طلوع الشمس وصلى عليه مروان ابن الحكم، وأرسل مروان بحور (البقر) فنحرت وأطعم الناس وغلبنا النساء فبكين ثلاثاً.

ثم احتج المؤيدون لهذا المذهب بما روى مسلم عن عمرو ابن العاص قال: إذا دفنتموني فأقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ما أراجع به رسل ربى».

ومنها ما أخرجه النسائى فى باب الصيام والصلاة عن الغير قال: «لا يصوم أحد عن أحد ولا يصلى أحد عن أحد ولكن يطعم عنه».

وما جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم».

اعتمد هذا الفريق على هذه الأحاديث جملة وما يشاكلها، كما اعتمدوا على استحباب التصدق بالطعام على الفقراء من بعد الدفن كل يوم حتى سبعة أيام لينتفع الميت بالصدقة عند مراجعة سؤال القبر، بما رواه السيوطى فى «التشبيت عند التبييت» من قوله:

يكرر السؤال للأنام ... فيما رووا فى سبعة أيام
كذا رواه أحمد بن حنبل ... فى الزهد عن طاووس الحبر العلى
وبعده أبو نعيم خرجه ... فى حلية فيا لها من درجة
إسناده قد صح وهو مرسل ... وقد يرى من جهة يتصل
وحكمه الرفع كما قد قالوا ... إذ ليس للراوى به مجال
وفيه إن قد كانت الصحابه ... يرون إطعاماً له استحبابه
فى طول تلك السبعة الأيام ... مسعونة فى ذلك المقام
ومثل هذا جاء عن مجاهد ... فيا له من عاضد وشاهد

ويضيفون إلى ذلك ما جاء عن ابن القيم فى المسألة الخامسة عشر من كتاب الروح حيث قال[1]: إن الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك ثم تسرح بعد ذلك

---

(١) كتاب الروح المنسوب إلى ابن القيم فيه أشياء ينبغى التأنى والتثبت عند نقلها وروايتها.

حيث شاءت، وفى الحلية لأبى نعيم عن عبد الله بن أحمد ابن حنبل عن هاشم عن سفيان بن عيينة أنه قال : قال طاووس : «إن الموتى يفتنون فى قبورهم سبعاً فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام».

هذه حجج الذين يؤيدون التصدق للميت من يوم الدفن حتى اليوم السابع، حيث يجتمع العلماء للدعاء الختامى كاجتماعهم ليوم الدفن.

ولكن الأمر قد تسرب إليه الفساد واستفحل حتى عجز العلماء عن إيقافه وإصلاحه خصوصاً فى بلاد يوربا، لذلك قام الوعاظ بمنعه وتحريمه لأنه انقلب إلى وليمة فى بلاد يوربا.

* * *

اجتماع الدعاء للميت يوم سابع الوفاة

ذلك أن المسلم إذا مات عن بنين كانوا يحضرون شهوداً ويحضر الإمام وجماعته لتجهيزة والصلاة عليه ودفنه ثم يجلسون للتعزية وللوعظ والتذكير بأن هذا سيكون حتماً عاقبة كل أحد، ويقولون: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] .

ثم يقولون استغفروا لأخيكم فإنه الآن يسأل وسلوا له التثبيت وتصدقوا له، ومن هنا يقوم أفراد العائلة والأسرة والمعارف والأصدقاء بتقديم ما يتيسر لكل واحد إلى الإمام وجماعته **فيأمر الإمام الجماعة بقراءة يس، أو تبارك أو شيء من القرآن أو القرآن كله أو الذكر بعدد من كلمة الشهادة ويهبون ثوابها وثواب الصدقات إلى الميت ، فيوزع هذه الصدقات على الفقراء في المجلس** ، هكذا بدأ الأمر بالتدريج .

ثم يصنع أقارب الميت الطعام كل يوم يرسلون به إلى الفقراء في المساجد والزوايا والمدارس، حتى اليوم السابع فيعود الإمام وجماعته للدعاء للميت كاليوم الأول .

هذه هي الحالة الشائعة في بلاد يوربا وما يجاورها من بلاد غرب إفريقيا، ثم انقلب الأمر من سيئ إلى أسوأ حيث تسربت إليه الجاهلية الأولى المنتشرة بين الكفار قبل انتشار الإسلام .

ويجب على الدعاة أن يحاربوا هذه الجاهلية الثانية كل المحاربة لأنها اليوم أكثر انتشاراً في الأوساط الإسلامية اليورباوية .

الجنازة كالوليمة فى بلاد يوربا

وهى من رواسب الجاهلية الأولى التى تسربت إلى الأوساط الإسلامية من جراء احتكاكهم واختلاطهم بالوثنيين والنصارى لأن أهل الأديان الثلاثة كانوا يتداخلون فيما بينهم فى الأسرة الواحدة ويختلطون فى السوق والمعمل والبلد والشارع ، وحاصله أن تشييع المسافر عادة متأصلة فى نفوس أهل بلاد يوربا كاستقباله بموكب عظيم حسب مكانته الاجتماعية .

وكان موتى ملوك يوربا القدماء يشيعون إلى مقابرهم فى مواكب وحفلات، كما يقام لهم ذلك فى حياتهم ومراسم توليتهم مثل ما فى تقاليد الفراعنة المصريين، وإذا مات ملك من الملوك هيأ خلفه أو ابنه له عدداً من ضحايا الأبقار والأغنام لتكون له زاداً إلى العام الثانى.

وذلك أيضاً يشبه ما كانت العرب تفعله فى الجاهلية من العقر حيث إنهم كانوا ينحرون على قبور الموتى ويقولون إنه كان يعقرها للأضياف فى حياته، فكافئه بذلك بعد الموت أو مثل ما يذبح أمام النعش فجاء الإسلام ببطلان ذلك وقال النبى ﷺ : «لا عقر فى الإسلام»، رواه أبو داود.

وكانت ضحايا الأبقار والأغنام التى تقدم اليوم فى بلاد يوربا للموتى الملوك ، كانت فى الماضى السحيق ذبائح بشرية اعتقاداً منهم أن يكونوا له خدماً فى العالم الآخر.

وذلك لاعتقادهم أن من كان ملكاً فى هذا العالم لابد وأن يكون كذلك فى العالم الآخر، فيجب أن يبذل كل غال ونفيس لإقامة الحفلات له إلى أقصى حد.

لأن ذلك هو التشريف النهائى له ، وكانت هذه الحفلات أولا مقتصرة على الملوك والأثرياء والعظماء ثم امتدت إلى أفراد الناس فى كل قبيلة وأسرة لكسب السمعة والشرف لها.

وكان من مات وخلف ابناً أو أخًا فعلى هذا الخلف أن يقيم لجنازته حفلات التشريف النهائى، وكل من مات عنه والداه ولم يسبقهما بالموت فله أن يخرج على قومه ويباهيهم بالفرح والزينة ويطعم الطعام ويسقى الشراب .

وكان الأمر متوقفاً على قدر ثراء الخلف ثم تجاوز ذلك إلى حد المباراة والمنافسة والمغالاة حيث ينفق كل ذى سعة من سعته، أو من تركة الميت الراحل.

ومن كان ذا عسرة فعليه أن يستدين ويرهن للدين كل ما يملك من ديار وعقار حتى يستطيع أن يغسل عن نفسه وأسرته عار العجز عن إقامة التشريف النهائى لميته الراحل، وعار عجزه عن الشكر على أنه خلف والديه ، وإذا استطاع ذلك شمخ بأنفه بين أقرانه واختال فى مشيته وطرب ورقص وتغنى، بمدحته المغنون وذبح الذبائح ووزع الأطعمة والأشربة على المدعوين، ومن أجل دعوة الأقاصى والأدانى إلى تشييع الجنازة ابتكر المسيحيون ادخار موتاهم فى المستشفى ثلاثة أيام أو أسبوعاً ليتم الاستعداد الكامل لتلك المهازل.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد سقط فى أيدى العلماء الذين كانوا يبيحون الاجتماع للدعاء يوم السابع فكفوا عن عمل ذلك.

وشر ما فى البدعة أنها تنتشر بسرعة حتى إنه بدأت مثل هذه العادة تجتاز حدود بلاد يوربا إلى بلاد هوسا ، حيث قرأت أخيراً للدكتور على أبى بكر فى كتابه (الثقافة العربية فى نيجيريا) أنه جرت مناظرات ومناقشات وردود بين علماء مدينة كانو حول الموضوع، ونورد شيئاً منها هنا مع الإيجاز :

يقول الشيخ آدم بن عبد الرحمن السيوطى من علماء حارة مادابو وهو يتزعم جناح إباحة الاجتماع للدعاء، ويقول فى كتاب أسماه حجج علماء مادابو قال: أما الدعاء للميت يوم ثالثه وسابعه وغير ذلك باجتماع الفقراء والمساكين فله برهان ودليل وهو ما فى شرح النفراوى فى باب ما يفعل بالمحتضر ما نصه : وأما ما يصنع أقارب الميت من الطعام وجمع الناس عليه فإن كان لقراءة القرآن ونحوها مما يرجى نفعه للميت فلا بأس به ، وأما لغير ذلك فيكره .

ثم قال المؤلف : فالطعام والفلوس حينئذ سواء إذ المراد إدخال السرور على قلوب الفقراء والمساكين ، ثم رأيت فى تنبيه المغتربين ما نصه : وكان سفيان الثورى يقول : إن الميت يفتتن فى قبره سبعة أيام ، ولذلك استحبوا التصدق عنه تلك المدة مساعدة له حتى يلقن حجته .

هذا ما يحتج به علماء كانو الذين يبيحون الأمر، وقد حررنا فيما مضى جميع ذلك من أساسه .

فانحاز طائفة من علماء كانو إلى هذا الرأى وأيدوه وأثنوا

عليه حتى قرظوا كتابه ذلك بقصائد أوردها الدكتور على أبو بكر فى كتابه .

أما الذين قاموا بالرد عليه فهم كثيرون منهم الشيخ محمد الثانى بن الحسن الكافنغى، فى كتاب سماه الأدلة السنية فى الرد على الطائفة البدعية، وخلاصة رده فى ثلاث نقاط :

أحدها : عدم جواز تعيين يوم واحد للتصدق للميت .

ثانيها : ألا يخرج شيء من تركة الميت غير مؤن تجهيزه ودفنه وقضاء دينه الذى عليه إن كان عليه دين .

وأنه لا بأس بالتصدق له بالشيء اليسير من ماله إذا وصى به فيما دون الثلث ثم يذهب ما بقى للورثة .

ثالثها : عدم جواز إقامة النساء مآتم هى أشبه شيء بالحفلات فى سابع يوم الوفاة وغير ذلك لما يترتب عليه من مفسدة وانحراف(١) .

ويقول الشيخ محمود بن الحسين فى أبيات :

---

(١) ص ٣١٤ على أبو بكر فى الثقافة العربية بنيجيريا .

تصدق يا أخي للميت سرا ... بمالك إن تكن نفعا تروم
ولا تقرب إذا لم يوص ميت ... من المتروك شيئاً فالعليم
نهى عن أكل أموال اليتامى ... وفي هذا أتى زجر عظيم
تصدق يا أخي في أي يوم ... تريد تصدقا دع من يهيم
يوقتها لثالث يوم موت ... وسابعه وذا غلط ذميم

جزى الله المنافحين عن الإسلام في كل مكان وزمان خير الجزاء.

* * *

رثاء الميت ليس من النياحة

التأبين والندبة والرثاء ليس من دعاوى الجاهلية الممقوتة لأنها كالثناء والدعاء للميت، عن أنس قال: «مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال النبي ﷺ وجبت، قال عمر: ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض» متفق عليه.

أما التأبين فهو الثناء على المرء بعد موته.

ولما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى أقبل أبو بكر رضى الله عنه من بستانه بالسنح (ضاحية بالمدينة) ودخل عليه وكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا، وقال عمر رضى الله عنه مثل ذلك.

وأما الندبة فقد ندبته السيدة فاطمة بقولها:

«يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه» رواه البخارى.

أما الرثاء فهو الثناء شعراً فقد رثته السيدة صفية بنت عبد المطلب:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا براًّ ولم تك جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلماً ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله أمى وخالتى ... وعمى وخالى ثم نفسى وماليا
ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيا وباقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ... وتبقى المعاصى والذنوب كما هيا
ولو أن رب الناس أبقى نبينا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا

روى محمد بن عمر الواقدى عن رجاله، قال أبو بكر الصديق يرثى رسول الله ﷺ:

يا عين فابكى ولا تسأمى ... وحق البكاء على السيد
على خير خندف عند البلا ... ء أمسى يغيب فى الملحد
فصلى المليك ولى العباد ... ورب البلاد على أحمد
فكيف الحياة لفقد الحبيب ... وزين المعاشر فى المشهد
فليت الممات لنا كلنا ... وكنا جميعاً مع المهتدى

وإلى هنا ينتهى ما أردنا بيانه، مما يجوز وما لا يجوز من التقاليد المشفوعة بالجنائز.

* * *

الأصل الرابع من أصول الجاهلية
الاستسقاء بالنجوم والأنواء

كانت العرب فى الجاهلية تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط والطالع من الكواكب المتفاعلة بين منازل القمر وبروج الشمس، على أنها من المؤثرات بطبعها والفاعلات لهذه التغييرات الجوية لا على أنها مسخرات بأمر الله.

لهذا جاء الإسلام بكفر من ينسب ذلك إلى الكواكب ولم ينسبها إلى الخالق المسخر المدبر المنعم.

« جاء فى الصحيحين أن النبى ﷺ، صلى بالناس صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل عليهم فقال: « هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر. فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكوكب. وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكوكب ».

وإنما يكفر من ينسب الأمطار والرياح إلى الكواكب، لأنه لم

ينسب النعمة إلى المنعم الحقيقى ولم يحمده على تلك النعمة . وتلك عادة جاهلية كفرية.

أما إذا كانت النسبة جارية على قانون السببية فلا بأس بذلك؛ فإن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها كما ربط الشبع بالأكل، والرى بالشرب، والولادة بالنكاح . وهلم جرا.

وإنما ينهى الإسلام عن أمرين :

أحدهما : إثبات التأثير لتلك الأشياء بطبعها وعدم الاعتقاد بأنها مسخرة بإذن خالقها.

وثانيهما : إثبات التأثير لما لا تأثير له على كل حال من الحقيقة والمجاز.

وينبثق من هذا الموضوع ثلاثة مباحث هامة :

المبحث الأول : فى أوضاع الكواكب والأجرام السماوية ذاتها .

المبحث الثانى : فى تأثير هذه الكواكب على الأجزاء والأجسام مطلقاً.

المبحث الثالث : فى تأثير الكواكب على حياة أفراد الناس.

المبحث الأول

فى عالم الفلك الجغرافى

إن الأجرام السماوية على ثلاثة أقسام :

أولها : النيزك أو المذنَّب وهو المسمى فى القرآن بالشهاب الذى يرمى به الشياطين.

وثانيها : الكواكب السيارة (أو المجموعة الشمسية) ويلحق بها ما يسميه القرآن بالنجوم.

وثالثها : الثوابت وهى ما سماه القرآن بالبروج والمنازل.

ما هى البروج وما هى المنازل ؟

البرج فى اللغة الحصن والقصر العالى.

والبرج فى الاصطلاح الجغرافى طريق الأرض ومدارها حول الشمس فى سيرها السنوى، أو طريق الشمس الظاهرة التى تقطع الفلك فيها فى (٣٦٥ يوماً) وبضع ساعات.

وتطلق البروج على مجموعة من الكواكب التى تظهر فى

صورة حيوان أو نبات من بعيد ويطلق على البرج اسم من أسماء الحيوانات والنباتات والأشياء الشبيهة بتلك الصورة وهى :

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو، الحُوت.

والستة الأولى من هذه البروج شمال خط الاستواء. والستة الأخيرة جنوب خط الاستواء، وتسير الشمس فى كل برج شهراً ومنها ما يكون ثلاثين يوماً أو واحداً وثلاثين. وترتبط الفصول الأربعة بحلول الشمس فى هذه البروج .

وابتداء الربيع يكون بحلول الشمس فى الحمل والثور والجوزاء، وذلك من الثالث والعشرين من شهر مارس .

وابتداء الصيف يكون بحلول الشمس فى السرطان والأسد والسنبلة. ويصادف الثالث والعشرين من يونيو .

وابتداء الخريف بحلول الشمس فى الميزان والعقرب ويصادف ٢٤ من سبتمبر.

وابتداء الشتاء فى الجدى والدلو والحوت ويصادف ٢٣ من ديسمبر ويفعل الله ما يشاء فى تغيير هذه الفصول فى المناطق والبلاد، فلا تكون على شهور ثابتة سواء بسواء فى جميع العالم.

مبحث تأثير الشمس على الأجواء والأجسام

إن القاعدة العلمية الثابتة على الحس والتجربة قد برهنت على أن الأجرام السماوية القريبة من الأرض هي وحدها التي تؤثر على الأجواء والأجسام الكائنة على الأرض من حيوان ونبات .

ولقد أورد ابن خلدون كلام بطليموس في المقدمة وقال : إن أثر النيرين في العناصر والفصول والأمزجة لا يجحده أحد ، فالشمس تبدل الفصول والثمار والزروع .

والقمر يؤثر في الرطوبات والماء والفواكه وغيرها ، وذلك لأن الشمس سراج وهاج وطبيعتها حارة ساخنة تجفف الرطوبات وتحرق اليبوسات وتؤثر بحرارتها في الأجواء والأجسام ، وتحدث الضرر البالغ في جسم من يتعرض لها . وذلك لأن الشمس هي القاطرة التي تجر الأرض وسائر المجموعة المسماة بالكواكب السيارة الدائرة حولها .

فتنشأ الفصول الأربعة من أثر اقتراب الأرض منها أو من ابتعادها عنها ، ولا شك أن للفصول الأربعة آثاراً ملموسة على الأرض وسكانها .

المبحث الثانى

تأثير القمر على الأجواء والأجسام

والقمر أقرب كوكب يجاور الأرض وأكثر تأثيراً على الأجسام.

القمر بارد رطب يحدث الرطوبة فى الأجواء والأجسام.

ويحدث ضرر البرد والزمهرير فى جسم كل حيوان يتعرض له.

وللقمر أيضاً تأثير على كثير من الأمراض العقلية فيزداد تهيجاً كالمصابين بالجنون والصَّرع عند ظهور الهلال أو البدر فى كل شهر.

وللقمر أيضاً علاقة قوية بالدورة الدموية التى تعتادها النساء فى كل شهر، كما أن الأمراض الجلدية تشتعل فى النصف الأول من الشهر أثناء زيادة ضوء القمر، وتنقص فى النصف الثانى عند نقصان الضوء.

وكذلك المد والجزر يحدثان من تجاذب الأرض والقمر فيتحرك ماء البحر متجهاً للقمر حسب قانون الجاذبية العام .

أما منازل القمر فهى مَبيتُه فى كل ليلة حتى تكمل ثمانياً وعشرين ليلة وكسوراً وتسمى العرب كل منزلة باسم ما يحاذيه القمر من الكواكب التى سميت مجموعها بالبروج ، وأسماء منازل القمر الثمانية والعشرين على قسمين أربعة عشر يمانية وأربعة عشر شامية وهى :

الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الزراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك، النفر، الزيانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد ذابح، بلع، سعد سعود، سعد الأخبية، الفرع المقدم، الفرع المؤخر، الرشا.

ويذهب بعض العلماء إلى أن منازل القمر غير هذه الأسماء وقال : إن منازل القمر هى المقابلة والتوليد، فالهلال فالتسديس فالتثليث، والتربيع الأول والبدر ثم التثليث والتربيع الثانى والتسديس، فالمحاق لقوله تعالى : ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾ [يس : ٣٩] .

فمن هذه التغيرات الناتجة من دوران القمر حول الأرض تجاه الشمس يحدث التأثير على الأجواء والأجسام .

* * *

مبحث تأثير المذنبات والنيازك

أما الكوكب المذنب فهو جرم سماوى يسبح فى الفضاء حول الشمس ولا يقترب منها، وعندما يقترب من الشمس تجذبه بشدة وتضيء وتلمع وراء هذا الجذب ذيولاً من الكهرباء ومن الغازات. ولهذا يسمى كوكباً ذا ذنب.

أما النيزك فجرم صغير يسبح فى الفضاء ولا يقترب من الكواكب التى هى أكبر منها من الكواكب السيارة والأرض، فإذا اقترب من الأرض جذبته بقانون جاذبية الأكبر للأصغر فإما أن ينهزم النيزك ويتناثر غازاتها فى الهواء، وإما أن يسقط على الأرض ويحدث هوة عميقة حيث سقط. وهى آية يريد الله من ورائها أموراً كما أوضحها فى القرآن .

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ [الرعد : ١٣]

ولقد كان أهل الجاهلية يفسرون ذلك تفسيراً خاطئاً، فجاء

الإسلام يصحح لهم ذلك الخطأ بتفسير صحيح من القرآن والحديث وفى القرآن عدة آيات تثبت منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وجاء فى الحديث الذى رواه مسلم قال: بينما النبى ﷺ فى نفر من الأنصار إذ رمى نجم فاستنار فقال النبى ﷺ: «ما كنتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا، فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتخطف الشياطين فيرمون فيقذفون إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون».

المبحث الثالث

فى تأثير الكواكب على حياة أفراد الناس

ويتعلق بهذا المبحث علمان أحدهما يسمى بالتنجيم، والآخر يسمى بالنجوم.

ويختلف التنجيم عن علم النجوم .

أما علم النجوم: فهو معرفة أوضاع الأجرام السماوية وسيرها وتنقلاتها، وسير الشمس والكواكب السيارة حولها، وسير البروج وربطها بالشهور والفصول. فهذا علم ثابت يعرف به مواقيت الصلاة والصيام والحج والزرع والحصاد وفى القرآن ما يشير إلى ذلك من قوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢، ٦٣] ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

[يونس: ٥]

فهذا علم النجوم الذى أجمع علماء الإسلام على جواز تعلمه بل على وجوبه لمعرفة عجائب السموات ومعرفة مواقيت الصلاة وجهات القبلة .

أما التنجيم فهو الزعم بأن الأجرام السماوية قريبها وبعيدها صغيرها وكبيرها لها تأثير على حياة الأفراد من الناس كما سبق آنفاً .

ويزعم أهله بأنهم يعرفون حوادث الكائنات بالنظر فى الكواكب وسيرها، وتنقلات الشمس فى بروجها والقمر فى منازله ويربطون ذلك بموت الملوك والعظماء والأمراء – وولاتهم ، وبتغير الشئون السياسية والزراعية والتجارية .

وأول ما يبطل نظرياتهم أنهم ربطوا الأيام السبعة بالكواكب السيارة . يوم كان مبلغ علمهم ينتهى إلى أن الكواكب السيارة سبعة وهى كما يقولون :

زحل شرى مريخه فى شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

ولقد أبطل العلم الحديث هذه النظرية وجعل الكواكب السيارة تسعا باستثناء الشمس والقمر، لأن القمر تابع للأرض،

وأن الشمس مركز الكواكب المسماة بالمجموعة الشمسية، وحولها عطارد وزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ونبتون ويورانس وبلوتو، فظهر الحق وبطل ما كانوا يزعمون .

ويقول ابن خلدون : (إن الحدس والتجربة لما بعد النيرين من الكواكب وآثارها ظنى وليس من اليقين فى شىء، لأن قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وإنما تحصل بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب البعيدة طويل الزمن، فيحتاج تكراره إلى آماد وأحقاب تتقاصر عنها الأعمار كلها لو اجتمعت على تحصيله) .

الخط فى الرمل :

ومن قبيل التنجيم: الخط فى الرمل، لأنهم يربطون هذا بذلك وينسبونهما إلى الكواكب والبروج وإلى الأيام والشهور، كما يعد من قبيل الكهانة والعرافة وطرق الحصى.

والتحقيق العلمى فى إبطال الخط قائم على عدم ثبوته واستقراره على نتائج ثابتة مستمرة ولو بسط صاحب الخط رمله وخط خطوطه وأخرج أشكاله ثم استنطق تلك الأشكال فى مرات

مختلفة، فإن نتائجها لا تتفق على جواب واحد إلا بالمصادفة، لهذا صار ملتبساً بالكهانة.

وكان بعض العلماء يرونه علماً جائزاً لما رواه مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»[1].

وحاصله على ما ذكر أهل التاريخ أن النبى إدريس عليه السلام – ولعله المسمى هرمس – هو المشار إليه فى الحديث، وهو الذى علمه الله ذلك الخط وبه أظهر الله نبوته، إذ تمثل له جبريل على ساحل البحر ذات يوم فبسط الرمل وخط ونظر إلى إدريس، فقال ما اسمك: قال إدريس. قال له أنت نبى وتكتم نبوتك؟ فقال إدريس: من أين لك هذا العلم؟ قال هذا علم الرمل، فقال إدريس: سألتك أن تعلمنى، قال حبا وكرامة، نجتمع هنا كل يوم وأعلمك، فكانا يجتمعان كل يوم حتى أتقنه إدريس، فقال له جبريل يوماً: خط على الملك جبريل أين هو فى هذه الساعة فخط

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (٢/١٧٣)، معناه: أن من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقينى بالموافقة فلا يباح، والمقصود: أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة.

إدريس فى الرمل حتى اكتشف أن صاحبه هذا هو جبريل عليه السلام، ثم طلبه فل يجده. فعلم أن الله بعثه إليه ليعلمه هذا العلم وليخبره أنه نبى، ثم أتى إدريس قومه واجتمع بأكابرهم وقال لهم: قد تعلمت علماً نفيساً فمن كان منكم فى قلبه ضمير فليضمره وأنا أبينه له فأضمر كل منهم فجعل إدريس يحدثهم، وهم يتعجبون، ثم سألوه أن يعلمهم فعلمهم، وهم الهرامسة تلامذة إدريس.

ولما علم أنهم أتقنوا العلم جيداً جمعهم وأخبرهم أنه خط فى الرمل فظهر له أن الله أرسل نبيًّا صادقاً وطلب إليهم أن يخط كل واحد لطلبه فخطوا جميعاً، فوافقوا على ذلك ثم أمرهم أن يبحثوا عنه حتى يجدوا أين هو ليؤمنوا به فخطوا حتى قالوا: أنت ذلك النبى فبذلك ظهرت نبوته وآمن به من آمن، وكفر من كفر، ومن هنا ذهب علم الرمل إلى الكفار وبقى أثره فى الجاهلية وعليه قول النبى: «فمن وافق خطه فذاك».

ولكن من الصعب أن نعرف من وافق خطه على الصحيح.

الكهـــانة

أما الكهانة فهى الإخبار عن الغيب وعن الأسرار وما يحدث فى المستقبل. وقد استفاض فى البحث عنها العلامة ابن خلدون وقال: (إن الكهانة من خواص النفس الإنسانية المستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية فيحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الأنبياء، وقرر أنها تحصل للكهان بالفطرة وهذه باقية حتى بين يدى النبوة وبعدها كما حصل لابن صياد فى زمن النبى ﷺ والتى تحصل لهم بالاستعانة بالشياطين هى التى بطلت بما وقع من رجمهم بالشهب.

وكان فى العرب كهنة كثيرون أشهرهم شق وسطيح ممن يستعينون بالشياطين، وكان العرب يعتمدون على كلامهم ويثقون بأخبارهم.

وأعجب ما وصل إلينا من ذلك أن جماعة من الكهنة أخبروا بمبعث النبى ﷺ وقرب ظهوره منهم سطيح حيث وجه إليه النعمان عبد المسيح فلما أتاه أدركه يحتضر فكلمه فلم يجبه فأنشأ أبياتاً منها :

أصم أيسمع غطـريف اليمـن يا فاصل الأضغاث أعيت من ومن

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه وقال: عبد المسيح، على جمل مسيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك نبى ساسان، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذآن، رأى إبلاً صحابا تقود خيلا عرابا، قد قطعت دجلة ، وانتشرت فى بلادها .

يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح . شاما يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت[١].

---

(١) كان الكهنة يخبرون سائلهم بالكلام المسجوع لأنه أوقع أثراً فى النفوس، ويغلب عليه التكلف، لذلك نهى النبى ﷺ بقوله: «إياكم والسجع فى الدعاء». وقضى النبى لأعرابى فى دية الجنين بغرة عبد أو أمة فقال الرجل: «أأدى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل» فقال النبى ﷺ: «أسجعا كسجع الكهان؟!» وذهب الأدباء إلى أن علة التحريم التكلف المقرون بالكهانة، وإذا زالت العلة زال التحريم؛ وفى القرآن والحديث عدد من السجع المنسجم المطاوع.

ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته فأخبر كسرى بما سمع[١].

ومنها أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت رجل اسمه الفاكه، وكان له بيت خاص للضيافة يأوى إليه الناس من غير إذن، وصادف أن الفاكه اضطجع مع زوجته هند فى دار الضيافة فى يوم لم يأو إليه أحد، ثم نهض الفاكه من جوار زوجته وخرج لقضاء حاجة له، ثم إن رجلاً ممن اعتادوا ارتياد البيت أقبل كعادته ودخله فلما أبصر هنداً رجع مدبراً فأبصره الفاكه فداخله الشك فى زوجه، وأقبل عليها فركضها برجله على غضب الغيرة فاستيقظت من نومها فقال لها : من ذا الذى خرج من عندك؟ فقالت لم أر أحداً، وهى فى دهشة نومها، فقال لها: الحقى بأهلك، وفشا الحديث حول هذا الحادث بين العرب، وتكلم عتبة ابن ربيعة والد هند مع زوجها الفاكه ، وقال له : إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن فخرجا فى وفد من قومهما إلى اليمن فلما قاربوا موضع الكاهن قالت هند

---

(١) البداية والنهاية ٢ / ٢٦٩ راجع المقدمة السادسة من ابن خلدون.

لأبيها: إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون علىَّ سبة فقال: أبوها سأختبره لك فأدخل فى إحليل فرسه حبة حنطة فلما دخلوا على الكاهن قال عتبة: إنا قد جئناك فى أمر، وقد خبأت لك خبأ أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال الكاهن: تمرة فى كمرة، فقال عتبة: أريد أبين من هذا؟ فقال حبة بر فى إحليل مهر، فقال له عتبة: انظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل الكاهن يدنو من كل منهن فيضرب بيده على كتفها ويقول: انهضى، حتى انتهى إلى هند فقال لها: انهضى غير وسحاء ولا زانية ولتلدنّ ملكا اسمه معاوية فاغتبط الفاكه لذلك وقام إليها فرحاً لزعمه أنه أب ذلك الملك، فأخذ بيد زوجته ولكنها جذبتها منه بكبرياء وأنفة، وقالت: إليك عنى فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك فطلقت منه، وكان ما كان من تزوجها من أبى سفيان بن حرب فولدت له معاوية وصدق تنبؤ الكاهن بولاية معاوية الخلافة وتأسيسه الدولة الأموية(١).

(١) وإن صح هذا الخبر – ولا أظنه يصح – فقد ورد فيه ما يدل على أن الناس فى الجاهلية كانوا يشكون فى صحة أخبار الكاهن =

وقد جاء في الحديث من أخبار ابن صياد فيما رواه أبو داود: «أن النبي مر بابن صياد في نفر من أصحابه وفيهم عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الغلمان عند أطم بني مغالة، وهو غلام فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ظهره بيده، ثم قال أتشهد أني رسول الله؟ قال فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، ثم قال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله فقال له النبي ﷺ آمنت بالله ورسله، ثم قال له النبي: ما يأتيك قال يأتيني صادق وكاذب. فقال له النبي ﷺ: خلط عليك الأمر، ثم قال رسول الله ﷺ إني قد خبأت لك خبيئة».

وخبأ له ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] قال ابن صياد هو الدخ فقال رسول الله ﷺ: «إخسا فلن تعدو قدرك».

فقال عمر: يا رسول الله إيذن لي فأضرب عنقه، فقال: إن

= فيما يخبرهم، لذلك ارتابت هند واتهمت الكاهن فيما سيقول قبل وصولها إليه «إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطأ».
ويقول زهير -- الشاعر الجاهلي :-
لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

يكنه فلن تسلط عليه، يعنى الدجال، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال «ليس بشيء، فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقًّا؟ فقال رسول الله ﷺ: تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة» (متفق عليه) .

* * *

الإظهار على الغيب ليس تكهناً

قال تعالى:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

وجاء فى تفسير مفاتح الغيب آية أخرى هى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

بهذه النصوص ختم الله على أفواه من يدعى علم المغيبات

فيخبر الناس بها قبل وقوعها ، غير أن الله عز وجل قد استثنى من الناس من قد يظهرهم على الغيب فى قوله: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾

[الجن : ٢٦، ٢٧]

فاتفق المفسرون على أن كل ما جاز معجزة للرسول جاز كرامة للولى .

ولكنهم اشترطوا أن يكون الإظهار على الغيب موهبة لاتكسبا ولا تصنعا، كما أن على من كشف الله له الغيب أن لا يتظاهر به ولا يعلنه على الناس فقالوا :

ولابد من كتم وعدم إذاعة ومن لا يراعى الشر لا يك واصلا

قال المحققون إن الغيب قسمان :

قسم استأثر الله به فلا يطلع عليه أحد، فسموه غيب الغيب أو الغيب المطلق .

وقسم يأذن الله بإظهاره لمن يشاء من عباده بدليل الاستثناء .

﴿ **إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ فسموا هذا بغيب الشهادة .

فذلك ما يكون بدلائل وقرائن ومقدمات يقينية ثابتة بتجارب عملية متكررة كالعلم بأن الشمس تطلع غداً صباحاً وتغرب مساء.

وأن الليل والنهار يتعاقبان. وكالعلم بمواعيد الفصول الأربعة، أو العلم بوقوع الكسوف والخسوف قبل وقوعه.

وكل ما كان من هذا القبيل فلا يعد غيباً مطلقاً بل هو غيب عند من لا يعرفه وشهادة عند من يعرفه كمن اطلع على شجرة عالية أو برج عال وشاهد أشياء لم يشاهدها من على الأرض البسيطة ولهذا قيل :

لا تكن منكراً فشم أمور ... لطوال الرجال لا للقصار
فإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

أما طرق الإظهار على الغيب :

فأولها : الكشف الباطنى بالفطرة أو بالرياضة فأهل هذا الكشف هم المسمون بالمحدثين الذين يخبرون بالغيب، فيقع صحيحاً وعليه قال رسول الله ﷺ «كان فيمن قبلكم محدثون وإن يكن من أمتى فعمر». رواه البخارى.

ذلك لأن عمر رضى الله عنه يقول أقوالاً ويرى آراء فينزل القرآن وفاقاً لما يقول، حتى روى عنه قوله: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب وفى الأسرى وفى مقام إبراهيم.

وثانيها: الرؤيا المناسبة فإنها تصح من كل إنسان ذكر وأنثى بر وفاجر كما صحت من الفراعنة والأكاسرة والأباطرة.

يقول ابن خلدون: إن حقيقتها مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات عندما تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية بارتفاع حجاب الحواس بالنوم فترتفع النفس إلى عالم الحق فتدرك بعض الحقائق.

ولقد عبر الشارع عن الرؤيا بأنها من المبشرات وبأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكان الوحى يبتدئ بالرؤيا.

روى البخارى عن النبى ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا ما هى يا رسول الله قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له وهى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

قال الملحدون بإبطال الرؤيا وقالوا: إن النائم يرى فى منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربع.

فإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم والمعصفرات.

وإن غلبت عليه السوداء رأى الأحداث والسواد والأهوال والأفزاع.

وإن غلب عليه البلغم رأى المياه والأنهار والأمواج.

وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير.

وهذا الذى قالوه نوع من أنواع الرؤيا وليست الرؤيا منحصرة فيه، ولقد دلت التجارب على ما حققه الشارع من أن الرؤيا ثلاثة أقسام:

منها ما يكون من حديث النفس والوساوس التى نام عليها النائم، فذلك ما يكون فى أول النوم وأول الليل.

ومنها ما يكون من غلبة الطبائع كما ذكروا، وتلك أضغاث الأحلام.

ومنها ما يكون من الله فتلك الرؤيا الصالحة التى تأتى واضحة أو على طريق الأضداد فيحتاج إلى التأويل والتفسير.

ومن قبيل الرؤيا اختلاج الأعضاء وذلك بحركة غير إرادية تحدث فى عضو من الأعضاء وتدوم لحظة أو ساعة أو ساعات .

ويذهب بعض الحكماء إلى أن الاختلاج ليس إلا مجرد احتقان البخارات فى داخل الجسم وطلبها المنفذ أو مجرد تغير الدم مثل ما قالوا فى الرؤيا المنامية وربما تبعهم فى ذلك بعض العلماء الذين قد تحجروا واسعاً من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

والعارفون بالحقائق يعرفون أن الاختلاج قد يكون مما ذكروا فعلاً، ولكنه يكون أيضاً من صحيح البدن وسليم الجسم دليلاً على إخباره بما يحدث له فى المستقبل فإنه من الآثار النفسية والمواهب الروحانية التى يرزقها الله من يشاء من عباده كالرؤيا .

ولا ينكرها إلا من لم يذقها أو لم يكن يلاحظها ومن جهل شيئاً عاداه قال تعالى : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ [يونس : ٣٩] .

ولقد وضع المتقدمون تأويلاً لاختلاج الأعضاء كما وضعوا للرؤيا المنامية تأويلاً فمن صح عنده فليأخذه علما وحصافة ومن لم يصح عنده فليتركه جهلاً وخرافة .

على أن الاختلاف من قبيل الفراسة ، والفراسة علم وهبى لا يتيسر أو لا يقع لكثير من الناس.

وقد ذكر الراغب فى كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة » أقسام الفراسة وذكر أنها ضربان . ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه وهو ضرب من الإلهام[١]، وإليه أشار الحديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[٢] رواه الترمذى.

وصاحبه هو المحدث الذى عناه النبى فى قوله « كان فيمن قبلكم محدثون وإن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عمر » رواه البخارى.

وضرب يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال والأخلاق والأفعال واستطرد يقول : ومن الفراسة علم الرؤيا، وقد عظم الله أمرها فى جميع الكتب المنزلة.

ومن الفراسة الزكانة وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم. والقيافة، ضرب من الزكانة وهى ضربان :

---

(١) لم يذكر الراغب الاختلاج ولكنه يندرج تحت الضرب الأول الذى هو الإلهام.

(٢) قال ابن الجوزى موضوع وقال غيره ضعيف.

أحدهما : تتبع أثر الأقدام والاستدلال بها على السالكين.

ثانيهما : الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبه وجنسه واختص العرب بعلم القيافة كما اختص بها بنو مدلج منهم .

وفى الموطأ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يلحق أولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الإسلام ، فأتى رجلان كلاهما يدعى ولد امرأة فدعا عمر بن الخطاب قائفاً فنظر إليهما القائف فقال لقد اشتركا فيه فضربه عمر بالدرة .

ثم دعا المرأة فقال : أخبريني خبرك فقالت : كان هذا لأحد الرجلين يأتيني – وهى فى إبل لأهلها – فلا يفارقها حتى يظن وتظن أنه قد استمر بها حبل، ثم انصرف عنها فأهريقت عليه دماء ثم خلف عليها هذا – تعنى الآخر . فلا أدرى من أيهما هو؟ قال : فكبر القائف فقال عمر للغلام : وال أيهما شئت » .

وقد عمل عمر بقول القائف لما حدث على عهد رسول الله ﷺ فيما روت عائشة رضى الله عنها « أن مجززاً المدلجى رأى زيداً وأسامة قد غطيا رؤوسهما بقيطفة وبدت أقدامهما، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » رواه أبو داود .

تعاطى السحر من رواسب الجاهلية

السحر : هو التأثير فى القلوب بالمحبة والكراهة أو إلقاء الخير والشر فيها، أو التأثير فى الأبدان بالألم والسقم ، أو نحو ذلك .

والسحر قسمان : حقيقى وخيالى .

أما الحقيقى : فذلك سر من الأسرار وليس سحراً ، مثال ذلك سحر البيان لقول الرسول ﷺ : «إن من البيان لسحراً» .

أو نحو السر الذى أودعه الله فى خاصية بعض الأشجار والأحجار كتأثير المغناطيس على الحديد، أو الحرير الصخرى الذى إذا وضع عليه النار لم يحترق . ومثال ذلك كثير مما كان مكتوماً عند القدماء وصار اليوم علماً تجريبيًّا وهو أصل الكيمياء الحديثة .

أما السحر الخيالى ، فهو أيضاً قسمان :

أولهما سحر أصحاب النفوس القوية : كأصحاب العين السوء التى تؤثر فى الأشخاص وتحدث الضرر فى الأجسام ، وقال المحققون : إنها تنبعث منها جواهر لطيفة غير مرئية فتتخلل المسام من البدن فيخلق الله الضرر عندها ، وهى قوة فطرية جبلية من

صاحبها، لهذا جاء في الحديث : «العين حق، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين» متفق عليه .

وحديث «العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر» أخرجه السيوطي في الجامع الصغير.

ويلحق بهؤلاء أصحاب النفوس الضعيفة الذين يستعينون بالرياضات وجمع الأضداد وخواص الأشياء ليتقووا بها على إضرار الغير، وإلى هولاء يشير القرآن بقوله: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ** ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

ويلحق بذلك ما جاء في القرآن على لسان النبي يعقوب من قوله: ﴿ **يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [يوسف : ٦٧] .

وقد اختلف العلماء في إثبات حقيقة السحر الخيالي وعدم إثباتها .

اعتمد الذين نفوا عنه الحقيقة على قوله تعالى فى قصة سحرة فرعون بقوله:

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾

[طه : ٦٦]

واعتمد الذين أثبتوا حقيقته على ما سبق من آية سحرة بابل، وعلى ما ورد فى الصحيحين من أن لبيداً اليهودى سحر رسول الله ﷺ، وتأثر به حتى نزلت عليه المعوذتان على أحد قولى العلماء فى ذلك.

يقول ابن خلدون: «إن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا فى ديننا الذى فيه صلاح آخرتنا أومعاشنا الذى فيه صلاح دنيانا، وما لا يهمنا فى شىء منهما، فإن كان فيه ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات، لأن أثرهما واحد كالتنجيم الذى فيه نوع ضرر بالاعتقاد والتأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته فى الضرر، وإن لم يكن منه علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه تقرب إلى الله».

قلت : لا خلاف بين أهل التحقيق فى أن للسحر حقيقة، وإنما يبطلها الله بقوة الإيمان والإخلاص من العبد الصالح[١].

ولقد سجل التاريخ الإسلامى فى غرب إفريقيا أن الدعاة الأولين فيها إنما نجحوا فى نشر الدعوة الإسلامية بغلبهم على سحرة إفريقيا الذين كان العوام يعتقدون أن لهم أسراراً ملكوتية يسيطرون بها على الأشخاص والأشياء.

فلما خبت نارهم وانكسرت شوكتهم بروحانية الدعاة

---

(١) لقد عاب بعض المستغربين على ابن خلدون فى تعرضه لأبحاث الكهانة والنجامة والسحر ، فرد عليهم الأستاذ البحاثة ساطع الحصرى فى تعليقه على المقدمة تحت عنوان «بين التاريخ والمؤرخين» ذكر أسماء علماء اليونان والرومان والإفرنج من أيام هيرودت أبى التاريخ، حتى القرن السابع عشر فى أوربا من الذين بحثوا فى تلك الخرافات وأثبتوا صحتها ولم ينقص من مكانتهم عند أهل أوربا فى علوم التاريخ والاجتماع والفلسفة.
ولئن كانت أوربا لم تتخلص من شرور السحرة إلا بعد أن أشعلت عليهم نار حرب قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة ، حتى تم إحراق مليون ساحر فى قرن واحد من بداية السادس عشر حتى نهاية السابع عشر، وكانت المحاكمات وتنفيذ العقوبات تتم باسم الملوك والبابوات فإن الإسلام استطاع أن يخلص المسلمين من شرور السحرة بقوة الإيمان واليقين ، كما قضى سيدنا موسى على سحرة فرعون ، وكذلك قضى دعاة الإسلام فى غرب أفريقيا على سحرة البلاد فكان ذلك من أقوى أسباب انتشار الإسلام فيها وبقائها إلى اليوم.

المخلصين الذين أيدهم الله بالكرامات على قدر ما استقاموا على طريقة الحق وعلم الناس أن القوة لله جميعاً ودخلوا فى دين الله أفواجاً ملوكاً ورعايا.

وإنما تم ذلك على يد علمائنا الأولين باستقامتهم وثقتهم بربهم.

وفى ذلك تحقيق لما ورد فى الحديث القدسى الذى رواه الشيخان: «ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، ولئن استعاذنى لأعيذنه ولئن سألنى لأعطينه».

* * *